مصر وعلاقتها بالخلافة

للدكتور حسن ابراهيم حسن

أستاذ التاريخ الاسلامى بكلية الآداب

خاض الجند العرب غمار الفتن السياسية التى قامت بين الخلفاء الأمويين والخارجين عليهم ، وكذا بين العباسيين ومناوئيهم . وكان لتدخلهم أثر ظاهر فى هذه الفتن . وسنأتى بوصف موجز لها لنبين ما كان لدخول جند مصر فى غمارها من أثر

تألب محمد بن أبى حذيفة على خليفة عبد الله بن سعد بن أبى سرح على مصر وإخراجه إياه من الفسطاط إلى خلع عثمان ، وأسعر البلاد بنار الثورة التى انتهت بقتل عثمان وتولية على بن أبى طالب ، وما تلا ذلك أيضاً من الحوادث التى قامت بين حزب على وحزب معاوية ، وقيام الدولة الأموية . ولا غرو فقد كان لجند مصر فى هذه الحوادث كلها نصيب وافر ، ناهيك بما كان من قتل عثمان الذى تمّ على أيدى الثوار من مصر دون غيرهم من عرب البصرة والكوفة

وفى عهد يزيد بن معاوية ، دعا عبد الله بن الزبير إلى نفسه (سنة ٦٤ هـ) وصادفت دعوته نجاحاً عظيما فى بلاد العرب والعراق . إلا أن تنصّل محمد بن الحنفية بن علىّ بن أبى طالب عن مبايعة ابن الزبير ، ومبايعة يزيد بن معاوية لعدم وثوقه بأهل الكوفة الذين خذلوا أباه وأخويه من قبل ، وخروج الكيسانية مع المختار ابن أبى عبيد الثقفى ، ودعوتهم لمحمد بن الحنفية ؛ كل هذا فتّ فى عضد ابن الزبير ، وآذن بانحلال أمره

صادفت دعوة ابن الزبير فى مصر بعض النجاح ، فشد أزره أنصار العلويين اعتقاداً منهم أنه يدعو لأهل البيت ، ولحق به كثير من المصريين ، وسألوه أن يبعث إليهم والياً من قبله ، فبعث عبد الرحمن بن جحدم الفهرى ، فدخل مصر فى شعبان سنة ٦٤ هـ فى جمع من الخوارج من أهل مصر وغيرهم الذين انضموا إلى ابن الزبير فى مكة . فاضطر عرب مصر من شيعة بنى أمية إلى مبايعته على كُرْهٍ

ولما بويع مروان بن الحكم فى ذى القعدة سنة ٦٤ هـ كاتبته شيعة الأمويين فى مصر سراً ، فسار فى كثير من الأشراف وبعث ابنه عبد العزيز فى جيش إلى أيلة (عند العقبة) ونشط ابن جحدم لحربه ، وأشار عليه بعض رجاله بأن يحفر خندقاً (موقعه الآن بجهة القرافة) فتمّ حفره فى شهر واحد ، وفى ذلك يقول ابن أبى زمرمة الشاعر :

وما الجِدّ إلاّ مثل جدّ ابنِ جَحْدمِ
وما العزْم إلاّ عزْمه يوم خندقِ
ثلاثون ألفاً قد أثارُوا ترابه
وخدّوه فى شهرٍ حديث مصدّقُ

وبعث ابن جحدم الجيوش والمراكب لحرب مروان وابنه عبد العزيز ، فانهزمت جيوشه والى ابن الزبير ، ولم ينفعه خندقه ، ودخل مروان عينَ شمس ثم الفسطاط فى أول جمادى الأولى سنة ٦٥ هـ . وبنى الدار البيضاء لتكون مقرّاً له ، وبايعه الناس إلاّ نفراً ظلوا على تمسكهم ببيعة ابن الزبير ، فضرب أعناقهم[1] وكانوا ثمانين رجلا من المعافر . وقتل أيضاً سيّد لخم (الأكدر ابن حمام بن عامر بن صعب) فأتى زهاء ثلاثين ألفا من لخم ، وهم مدججون بالسلاح ، ووقفوا بباب مروان ثائرين فتوسط بعضهم فى الصلح وانصرف الثائرون . واتفق أن توفى عبد الله بن عمرو ابن العاص فى اليوم الذى قتل فيه الأكدر (١٥ جمادى الآخرة سنة ٦٥ هـ) . فلم يستطع القوم أن يخرجوا بجنازته لتألب الجند على مروان ، فدفن فى داره[2]

لقد كان للجند العرب فى مصر أثر ظاهر فى الفتن التى انتهت بقتل عثمان وعلى أيديهم وحدهم تمّ ذلك . ولما انتشر أمر ابن الزبير فى الحجاز والعراق وامتدّت دعوته إلى مصر حيث لاقت قبولا من نفوس العلويين أُخذَت له البيعة على يد واليه عبد الرحمن بن جحدم الفهرى ، ولما بويع مروان بن الحكم سنة ٦٤ هـ كاتبه أنصار الأمويين فسار إلى مصر وانتصر على أتباع ابن الزبير ثم دخل الفسطاط سنة ٦٥ هـ ، وبايعه الناس إلا نفراً قليلا أمر بضرب أعناقهم

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٠ — ٤٥ ، والمقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٣٧ — ٣٣٨

(٢) الكندى ص ٤٥ — ٤٦

كذلك كان للجند العرب فى مصر نصيب فى النزاع الذى قام بين العباسيين والأمويين، ذلك النزاع الذى انتهى بقيام الدولة العباسية . فلما أتى مروان بن محمد مصر فارا من وجه العباسيين لم يستطع أن يصد صالح بن على الذى تعقبه إلى مصر ، ولم يقو على مقاومته العباسيون ، لما كان من تألب الجند عليه في هذه البلاد ، فقد خرج القبط بسمهود ، وخالفه عمرو بن سُهَيل ابن عبد العزيز بن مروان ، وتابعه قوم من قيس ، ونزلوا فى الحوف الشرقى ، وأظهروا العصيان . ولما علم جند مصر بمسير مروان إليهم أجمعوا على منعه ، فلما قدم (٢٢ شوال سنة ١٣٢ هـ) لبس أهل الحوف الشرقى السواد لباس العباسيين ، وحذا حذوهم أهل الاسكندرية والصعيد

وعلى الرغم من هذا كله فقد استطاع مروان أن يدخل الجيزة ، ومن ثم شرع فى محاربة الجند العرب في الحوف الشرقى وفى الاسكندرية والصعيد ، وفى قمع فتنة القبط فى رشيد ، ثم قدم صالح بن على الى الجيزة (١٠ ذو الحجة ١٣٢ هـ) فى إثر مروان ، فسار هذا إلى بوصير ، في كورة الأشمونين (من مديرية بنى سويف) فوافاه صالح بن عدى فى جيوشه وقتله (الجمعة ٢٣ ذى الحجة سنة ١٣٢ هـ) ثم تعقب ذوى قرباه والعابثين له فى هذه البلاد ، ودخل الفسطاط (٢٣ المحرم سنة ١٣٣ هـ) ، وبذلك زال سلطان بنى أمية وتوطدت دعائم الدولة العباسية[1] . ولا شك فى أن لقيام جند العرب فى مصر فى وجه مروان أثرا ظاهرا فيما أحرزه صالح بن على العباسى من نصر معجل على مروان ، مما أدى إلى زوال سلطان بنى أمية زوالا لا رجوع بعده

* * *

استعمل العباسيون اسم الشيعة أداة لازالة الخلافة الأموية ، فلم يكد يتم تأسيس الدولة العباسية حتى قام النزاع بينهم وبين العلويين الذين أخذوا يكيدون لهم بالسيف حيناً وبالحيلة حيناً آخر . وفى خلافة المنصور (١٣٦ ، ١٥٨هـ — ٧٥٤ ، ٧٧٥م) دعا محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على المعروف بالنفس الزكية إلى نفسه سراً ، وتلقب بأمير المؤمنين. ثم ظهر فى سنة ١٤٥هـ بعد أن صادفت دعوته نجاحاً عظيماً[1] فى مكة والمدينة ، حيث اعترف الناس بامامته ، وأفتى الامام مالك بأحقيته بالخلافة من أبى جعفر . ومن المدينة أرسل أخاه إبراهيم إلى البصرة لنشر دعوته

ولكن محمداً لم يعش حتى يرى نتيجة دعوته ، فقد مات على يد ابن موسى العباسى ، فدعا أخوه إبراهيم إلى نفسه ، وشد أزره كثير من فقهاء البصرة وغيرهم من ذوى الرأى والجاه ، وانضوت المعتزلة والزيدية تحت لوائه وعاونه الامام أبو حنيفة وراسله سراً . وبهذا كله تمكن إبراهيم من الاستيلاء على واسط والأهواز وفارس[2]

بيد أن حياته آلت إلى ما آلت إليه حياة أخيه من قبل . فقد قتلة عيسى بن موسى (الاثنين أول ذي الحجة ١٤٥ هـ — ٦٨٢ م) فى موقعة باخمرا التى بين الكوفة وواسط[3] . ولقد ظهرت دعوة ابن عبد الله فى مصر وتابع كثيرون من أهل هذه البلاد ابنه على بن محمد الذى أنفذه أبوه لنشر الدعوة[4]

غير أن والى المنصور على مصر استطاع أن يحبط أعمال علىّ وأعمال من ناصروه ، وظل على ذلك حتى وصل إلى مصر خبر وفاة إبراهيم بن عبد الله فسقط فى يد الشيعة ، وانطفأت جذوة الثورة . ولا يعلم المؤرخون ما آل إليه أمر على بن محمد بن عبد الله[5]

كذلك كان لجند مصر نصيب كبير فى الفتنة التى قامت بين الأمين وأخيه المأمون شأنهم فى الفتن الخارجية التى كانت تنشب بين الخلفاء والخارجين عليهم أو المنافسين لهم ، وغدا اشتراك هؤلاء الجند فى الثورات مألوفاً لديهم ، حتى فى الأحوال التى لم يكن لمصر تمت ما يدعو إلى الاشتراك فيها

ولسنا ندرى ما الباعث الحقيقى الذى كان يدفع هؤلاء القوم إلى الزج بأنفسهم فى غمار هذه الثورات . ولا شك فى أنه لم يكن لهذه الثورات علاقة ما بالعصبية العربية التى جاء الاسلام ماحياً

---

(١) الكندى : شرحه ص ٩٤ — ٩١

(١) يحيى بن الحسين (مكتبة ليدن) مخطوط رقم ١٩٤٧ ورقة ١٥ أنظر كتاب « الفاطميون فى مصر » للمؤلف ص ٤٥ — ٤٦

(٢) يحيى بن الحسن (ليدن) مخطوط رقم ١٩٤٤ ورقة ١٥ ا ومايليها

(٣) أقرب إلى الكوفة منها إلى واسط وتبعد عن الأولى بسبعة عشر فرسخا . راجع ياقوت : معجم البلدان

(٤) المقريزى ج ٢ ص ٣٣٨

(٥) الكندى ص ١١٤

لها ، وإن كانت قد ظهرت فى مواطن كثيرة بعد الاسلام[1] . ويظهر أن الجند العرب كانوا لا يزالون مرتبطين بدار الخلافة بروابط الجنسية أكثر من ارتباطهم بمصر نفسها ، إذ لم تكن القومية المصرية قد شملت بعد المصريين من القبط والعرب جميعاً . غير أن الأمر الذى يسترعى النظر ما رواه الكندى من أن مصر كانت حين قام النزاع بين الأمين والمأمون فى أمن ودعة ، وكذا كانت راضية عن واليها جابر بن الأشعث الطائي ، وعن حكمه ، وأن هذا الوالى كان محبوباً لدى الخاصة والعامة فى هذه البلاد[2]

على أنه سرعان ما احتدم النزاع بين الأمين والمأمون بسبب ما كان من خلع الأمين أخاه المأمون وترك العهد له على الثانر وتوليته عهده ابنه موسى بدلا منه حتى غضب العرب فى مصر وغيرها ، وتكلموا فى خلع الأمين لنكثه العهد الذى تركه أبوه الرشيد وأودعه الكعبة الشريفة ، وهذا كاف وحده لإثارة سخط الناس عليه . وظهر فى مصر السرى بن الحكم الذى استغل هذا الظرف لنفسه لإعلاء شأنه ورفع ذكره ، إذ كان منذ أن مصر فى أيام الرشيد خاملاً لا حيثية[3] له . فدعا إلى المأمون فبايعه نفر يسير . ولكنه ظل على نشاطه فى نشر الدعوة حتى دعا المأمون أشراف مصر إلى بيعته فأجابوه سرا . وأتى كتاب هرثمة بن أعين أحد قواد المأمون المدودين إلى وكيله على ضياعه بمصر وهو عباد بن حيان ، فقرأ هذا الكتاب (كتاب هرثمة) على ملأ من الجند فى المسجد ودعاهم إلى خلع الأمين فأجابه السواد الأعظم منهم وخلعوه (جمادى الآخرة سنة ١٩٦ هـ) ، ثم بايع الناس عبادا على ولاية مصر ، وأخرجوا والى الأمين من الفسطاط فثبت المأمون عبادا فى هذه الولاية .[4]

ولما علم الأمين بما حدث فى مصر من خلعه وإخراج عامله كتب إلى ربيعة بن قيس (رئيس قيس بالخوف) بولايته على مصر وكتب إلى اليمانية يطلب إليهم أن يقوموا بمعاونة قيس هذا فأظهروا دعوة الأمين وخلع المأمون ، وخرجوا إلى الفسطاط ، ودارت بين الفريقين مناوشات وحروب كان النصر فيها فى جانب أنصار المأمون . على أنه لما بلغ قيسا قتل الأمين (المحرم سنة ١٩٨ هـ) وبيعة المأمون تفرقوا — شأنهم فى الفتن التى اشتركوا فيها .[1]

هذا ما كان من أمر اشتراك عرب مصر فى الفتن الخارجية وهى فتن سياسية فى جملها وإن كانت قد ألبست لباس الدين ، ليكون تأثيره فى النفوس أقوى وأشد

ولا يعزب عن بالنا ما كان من الانقسامات المذهبية التى شطرت العالم الاسلامى شطرين : سنة وشيعة . ولقد كان لكل من هذين المذهبين فى مصر أنصار وأعوان . كما كان بها أيضاً أنصار لمذهب الخوارج الذين اعتزلوا علياً ، فضلا عما كان لظهور المذاهب الأربعة من التأثير فى مصر حيث ساد مذهب مالك فى القرن الثانى للهجرة ، وظل على ذلك نحو قرن ثم ساد بعده مذهب الشافعى ، وبقى على ذلك إلى اليوم ، وإن كان للتأثير من هذه الناحية لم يظهر فى ثوب عدائى مصحوب بفتن وحروب

وعلى الجملة فقد كان عمل الجند العرب فى مصر ينحصر فى عدة أمور

١ — القيام بالفتوح الخارجية لتأمين مصر من الغرب والجنوب

٢ — الاشتراك فى الغزوات البحرية التى قام بها الخلفاء الأمويون والعباسيون ضد الدولة الرومانية الشرقية أو القضاء على المحاولات التى بذلتها هذه الدولة حيناً بعد حين لاسترداد مصر

٣ — قمع الثورات الداخلية التى كان يقوم بها المصريون فى وجه الولاة

٤ — الاشتراك فى الفتن التى قامت بين الخلفاء والخارجين عليهم أو المنافسين لهم

وظالما انقسم العرب فى مصر على أنفسهم إلى فريقين : فريق يناصر الخليفة وفريق يناصر الخارج عليه والمنافس له

هذا إلى ما كان من قيامهم فى وجه الولاة والعمال إذا ما اشتطوا فى جمع الخراج ومن انقسامهم على أنفسهم بسبب ما كان من ظهور الاختلافات المذهبية فى المدنية وفى دمشق وبغداد

(١) مثال ذلك النزاع الذى كان بين النزارية واليمنية ، وهو من أهم العوامل التى ساعدت على نجاح الدعوة العباسيه

(٢) الكندى ص ١٤٦

(٣) الكندى ص ١٤٨

(٤) الكندى ص ١٤٨

(١) الكندى : كتاب الولاة ص ١٤٩ — ١٥١